

مصباح الملائكة الأخير

(إلى محمود درويش)

محمود درويش
(١٩٤١-٢٠٠٨)
الشعر وفلسطين... معاً



□ عصام ترشحاني

على إيقاع نبضك،
تشتهيك وتتبعك ..
ملكٌ على عرش الكلام ..
— هذا الكلام فضاؤنا الآتي
ومملكة لنا - والتاج لك .
ما من ملكٍ
سوف يأخذ مطر حك .
يا أيها الوطن الذي سيظل في الأعلى ..
ونحن هنا، رعاة شقائق المعنى،
سنحمل مشعلك!

❖❖

لم يبق ماء في الرماد
أسرى الخرافي الشفيف إلى الأبد .
خرج الفؤاد من الفؤاد،
وغاب جسم الأرض عن لغة البلاد .
ودعت محمود الصديق ..
ودعته بالدمعة الأولى ..
وتركت دمعه الأخيرة للصلاة .
نم يا حبيبي آمناً
نم مطمئناً .. فالقصيدة لن تنام!
ودعت درويش النبي ..

البحر لك
والغييم لك ..
هل أنت لي؟
الفل ينبت في خرائب مخملي،
وحدات التكوين لك .
الشعر، مفتوحاً
على الإدهاش،
مفتوحاً على التخيل والتأويل،
واللغة التي
ابتكرت مناسكها اللذيذة في دمك .
الشعر لك،
الزهر في صدر النساء المهلمات،
ولذة الإنشاد .. لك .
حتى الجبال ..
بوابل من حدسك الأخاذ تمضي مثلما
يمضي الغريب إلى الظلال،
ومثلما تمضي الظلال
إلى الغياب .
فهيئت لك!
الأرض، مذ نادت عليك،
ومنذ أن رقصت

وَدَعَتْ قَامَتَهُ ..
ولفَّتته .. وحيرته ..

وَدَعَتْ سِحْرَ حُضُورِهِ .

وَدَعَتْ فِرْدَوْسَ النَشِيدِ إِلَى الخُلُودِ،

وسقطتُ من أقصَى الغمام .

هو بعضُ ميراثِ الألوهةِ

في المدى،

وهو الكتابةُ بالسَّماءِ

وبالبنفسجِ والندى .

هو قِبَلَ « زهرِ اللوزِ »

فرقانُ الجراحِ، دُمُ الرياحِ

على سِريرِ للشذا .

وهو الكناياتُ التي

يَشْتَقُّ مِنْهَا الحُبُّ

نبرتهُ .. ولوعتهُ .. وغربتهُ؛

يَشْتَقُّ مِنْهَا الحُبُّ

إِثْمَ الشَّهِيدِ

من جسدِ الصِّدى .

هي ذِي كَمَنْجُتُهُ

تُطَارِدُ ظَبِيَةَ الأَفلاكِ

مِنْ كنعان .. حتى وردةِ الشيطانِ .

هي ذِي أهْلَةُ قلبه،

بحفيفها، ترتادُ من مسكِ الدُّجى

صوفيَّةِ النَّهْدَاتِ

والإشراقِ والرَّيحانِ .

هل كان مصباحَ الملائكةِ الأخير؟

هو بعدُ « زهرِ اللوزِ »

كُمَثْرَى المنونِ،

وصورةُ الراعي المُبَشِّرِ بالنبوةِ والجنونِ .

هو بعدُ « زهرِ اللوزِ »

معراجُ الحروفِ الحاملة ..

يمضي من الموتِ المؤقَّتِ بانتشاءِ النارِ

والولكهِ المقاومِ،

ما وراءَ البحرِ يمضي

كي يُغنيَ للوطنِ .

❖❖

يا أيها الذهبيُّ!

كم أسدكتَ غابَةَ ضوئِكَ الأخرى

على الموتى،

لكي تُحييَ الشجنُ .

يا أيها الذهبيُّ!

كم عانقتَ موتك،

والسَّماءُ .. ذراعها مَدَّتْ إِلَيْكَ لتجتبيكَ .

وكنتَ من نورِ التراتيلِ الكثيفةِ

يا صديقي،

كنتَ في تيهٍ يليقُ بروحكِ العليا

تعودُ إلى الحياةِ .

الآنَ تصعدُ يا ابنَ عكا ..

فوقَ زهرِ اللوزِ،

محفوظاً بجندِ الرَّبِّ .

تصعدُ بعدَ أنْ أَلْقَيْتَ آلامَ المسيحِ

على فسادِ الأمكنةِ .

الآنَ يتركُ الحصانُ إلى الكفنِ ..

الآنَ يتركُ الحصانُ مُلْطِخاً

بحرابه ونزيفه الوطنيِّ .

يا أنثاهُ!

هزِّي نخلةَ الشمسِ الوحيدةِ في وصيَّتهِ،

فلا يكفي البكاءُ عليه .

يا أنثاهُ .. لا يكفي البكاءُ على الوطنِ!

حلب

عصام ترشحاني

صدر له أكثر من عشرين مجموعة شعرية، أولها: قراءة في دفتر الرعد. وآخرها

شجار الغلاب ميراث الود.